التراث المخطوط وأهميته في كتابة تاريخ المغرب الأوسط في نهاية العصر الوسيط مخطوط : بستان الأزهار لابن الصباغ القلعي أنموذجا

أ/ سمية مزدور /جامعة الامير عبد القادر للعلوم الإسلامية / قسنطينة
s_histoire@yahoo.fr

ملخص

هذه الدراسة نسلط الضوء من خلالها على أحد المصادر المهمة في تاريخ المغرب الأوسط نهاية العصر الوسيط؛ وهو مخطوط: "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار"، لمؤلفه محمد الصباغ القلعي، فبالرغم من أن نصوصه التي تحكي سيرة أحد صلحاء إقليم بني راشد وهو أحمد بن يوسف الراشدي دفين مليانة وبعض أصحابه وتلامذته بطابع خيالي ممزوج بالكرامات والخوارق؛ إلا أنها تحمل في طياتها معلومات مهمة حول تاريخ المغرب الأوسط في القرن العاشر الهجري/16م، فمن الناحية السياسية، يشير إلى احتلال النصارى الأسبان لمدن الجهة الغربية وبداية تدخل العنصر التركي، وسوء معاملة الولاة للرعية، ومن الناحية الاقتصادية جسدت لنا نصوصه مختلف الأنشطة الاقتصادية القائمة في المغرب الأوسط بالرغم من الظروف العصيبة التي يمر بها، من تجارة برية وبحرية، وصناعات ونشاط فلاحي قائم على الرعي والزراعة والغراسة، أما من الناحية الاجتماعية فهناك نصوص كثيرة تثبت تدهور الوضع الصحي في المغرب الأوسط آنذاك بسبب انتشار مختلف الأمراض والأوبئة، وظهور أساليب علاجية انتهجها الأولياء والمتصوفة، كما يشير هذا المخطوط إلى انتشار بعض الظواهر الاجتماعية كالتسول بسبب تزايد الفقر، والتي حاول أولياء المغرب الأوسط التقليل منها بالإكثار من الصدقة وحث الناس عليها، وكذا ظاهرة اللصوصية

التي كانت منتشرة في أحواز تلمسان سيما أوقات المجاعة.

abstract

Dans cette étude nous surlignons l'un des importants source de l'histoire du Maghreb central à la fin du moyen âge, et c'est le manuscrit intitulé "Bustane Al Azhar Fi Manakib Zamzam Al Akhiar Wa Maâdan Al Anouar Sidi Ahmed Ben Youcef Al-Rachidi Ennaceb Wa Eddar", de Mohammed Ben Ahmed Ben Ali Essabagh Kolaé, et malgré que ses textes qui racontent la biographie d'un des vertueux de la région de Beni Rached qui est Ahmed Ben Youcef Al-Rachidi Al-Meliani et quelques uns de ses cmarades et ses disciples avec un style utopique mêlé avec des contes sur ses dignités et paranormal. Mais elles portent dans ces plis d'importantes informations concernant l'histoires du Maghreb central dans l'ère tardif des Zianites, du côté politique, comme l'occupation de plusieurs ville par les chrétiens espagnols et le début d'intervention de l'élément turque, et le mauvais traitement de la paroisse, et du côté économique comme la description des différentes activités qui éxistaient dans le Maghreb central malgré les conditions difficiles dans les secteurs du commerce routier et maritime, les fabrications et l'artisanat, et les activités agricoles basées sur le pâturage l'agriculture et l'implantation, et du côté social où il montrent la détérioration de la situation médicale dans le Maghreb central a cause de la diffusion des maladies et des fléaux, et qui ont entraîné par conséquent des méthodes de soins

étranges, ce manuscrit dénote aussi la diffusion de quelques phénomènes sociales comme la mendicité a cause de l'augmentation de la pauverté et la faim, la chose que les Soufi (Awlia) du Maghreb central ont éssayé de réduire par inciter les gens à donner la charité, et il dénote aussi le banditisme dans la région de l'oust Particulièrement durant les famine.

تمهيد

شهد المغرب الأوسط إلى جانب المغارب الأخرى نهضة علمية يعتد بها في العصر الوسيط، يدل على ذلك كثرة التآليف والمصنفات، والتي ما يزال أغلبها مخطوطا لم يرى النور بعد، والمخطوطات تلك تندرج ضمن مجموع الوثائق الأصيلة التي يستعان بها لكتابة تاريخ فضاء أو مجال جغرافي معين كالمغرب الأوسط، والتي ما تزال جوانب كثيرة من تاريخه مجهولة إلى حد بعيد، ولهذا السبب عكف الباحثون في الآونة الأخيرة على الاهتمام بالتراث المخطوط بغية البحث عن نصوص جديدة من شأنها أن تثري جوانب كثيرة من تاريخ هذا المجال في الحقبة الإسلامية.

ومن حسن حظنا أن التراث المخطوط العائد إلى الفترة الوسيطية متنوع المجالات والحقول المعرفية، كالطب والصيدلة والتاريخ السياسي والمناقب والتراجم والفقه والعقيدة والآداب، وغيرها من المواضيع التي تجعلنا نعتمد عليها كلها وعلى العلوم المساعدة من أجل بناء نسق تاريخي متكامل لفضاء المغرب الأوسط.

ونهدف من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على واحدة من تلك المخطوطات المهمة أي مخطوط: "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار" لابن الصباغ القلعي الذي عاش في

القرن العاشر الهجري/16م، والذي يصنف ضمن كتب المناقب الصوفية، وذلك من خلال طرح التساؤلات الآتية:

ما هي الأغراض التي ألف من أجلها مخطوط زهر البستان؟، ما هي أهم المواضيع التي عالجها هذا المخطوط ؟

وكيف ساهم في الكشف عن جوانب من تاريخ المغرب الأوسط أواخر الفترة الوسيطية؟

1- التعريف بالصباغ القلعي:

من المؤسف أننا لا نملك تفاصيل كثيرة عن حياة المؤلف لإغفال المصنفات البيوغرافية له، لكن من خلال مخطوطه هو استطعنا أن نعيد بناء ترجمة مقتضبة له؛ فهو محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ القلعي، نسبة إلى قلعة هوراة القريبة من مدينة معسكر، وقد ولد على الأرجح حوالي ستة 1517/923، حيث ذكر بأنه كان رضيعا لم تنبت أسنانه عندما انهزم الأتراك أمام جيش الأمير أبي حمو الزياني؛ المتحالف مع الإسبان سنة 1518/924.

ووالد الصباغ الذي اشتهر بابن معزَة، كان من الملازمين للشيخ أحمد بن يوسف المليانى، ومن خدامه المخلصين له، يغسل ثيابه ويعتني بشؤونه، وكان من المشتغلين بالعلم أيضا وبنظم الشعر؛ الذي استخدمه كوسيلة للدفاع عن شيخه المليانى حتى توفي سنة 1518/924 في المعركة التي جرت بين الأتراك والاسبان، وسقطت فيها مدينته (قلعة بني راشد)، تاركا ابنه صغيرا دون الإثغار على حد تعبير المؤلف.[1]

وكان المؤلف أيضا من تلامذة أحمد بن يوسف المليانى، لكنه لم يق[2]تصر على طريق التصوف فقط كما يبدوا جليا من كتابه هذا وإنما اشتغل بالقضاء أيضا، وهي مهنة تتطلب لمتوليها أن يكون عارفا بالفقه متضلعا فيه، إذ ولي قضاء القلعة،[3] وكان أخوه علي بن محمد بن معزة فقيها وقاضيا أيضا.[4]

عاش الصباغ القلعي في القرن 16/10 في جو سياسي مليء بالصراعات، طبعه تحالف بعض ملوك بني زيان الأواخر مع الأسبان النصارى ضد الأتراك؛ الذين أعلنوا فيما بعد حمايتهم لسواحل المغرب الأوسط من تحرشات الأسبان هؤلاء، لينتهي بعد ذلك العصر الإسلامي الوسيط، ويبدأ عصر جديد طغت عليه السيطرة العثمانية.[5]

آثاره ومؤلفاته:

إلى جانب كتاب البستان ألف الصباغ شرحا في أسماء الله الحسنى، وشرحا آخر في الأذكار، وله أيضا كتاب بعنوان: "شفاء الغليل والفوائد في شرح النظم الشهير بالمرادي"،[6] وهو شرح على قصيدة إبراهيم التازي المعروفة بالقصيدة المرادية في التصوف، وألف في النحو كتبا لا نعرف أسماءها، لكن شهرته ارتبطت أكثر بكتابه "بستان الأزهار"؛ الذي نحن بصدد دراسة بعض المواضيع التي تناولها.

عنوان المخطوط:

وقد جاء في مقدمة هذا المخطوط ما يأتي: (وسميته "ببستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار").[7]

نسسبة المخطوط لمؤلفه:

وقد جاء في مقدمته أيضا: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، قال الشيخ الفقيه العالم النزيه أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ القلعي النسب والمنزل لطف الله به لطفا جميلا آمين).[8]

بالإضافة إلى ما ذكر في مقدمة هذا المخطوط، فقد أكد لنا نسبته إلى الصباغ القلعي صاحب مخطوط "مناقب أحمد بن يوسف المليانى"، حيث قال فيه: (انتهى ما قيدته من بعض مناقب سيدي أحمد بن يوسف ومن كلامه رضي الله عنه من تأليف الشيخ سيدي محمد بن محمد بن الصباغ قاضي قلعة بني راشد تلميذ الشيخ أحمد بن

يوسف المسمى: بستان الأزهار في مناقب زمزم والأبرار ومعدن الأسرار سيدي أحمد بن يوسف رحمه الله).[9]

الدراسة الشكلية للمخطوط:

أ-مكان وجود المخطوط: توجد نسخ عديدة من هذا المخطوط منها نسختان في المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقمي: 1707 (وهي المعتمدة هنا) و 1708، ونسخة بالمكتبه الوطنيه بباريس تحت رقم 1890، ونسخة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم 243. ك.[10]

ب-عدد أوراق المخطوط والأسطر ونوع المداد ومقاس الورق: ويقع المخطوط المعتمد في هذه الدراسة الذي حمل الرقم 1707، في 114 ورقة، ومسطرته: 32 سطر، بقياس: 21.3/30.5، أما نوع المداد: فصمغ عادي.

ج-مقدمة المخطوط وآخر المخطوط:

وابتدأ المخطوط مقدمته بالنص الآتي: (بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، قال الشيخ الفقيه العالم النزيه أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ القلعي النسب والمنزل لطف الله به لطفا جميلا آمين)،[11] أما آخر المخطوط فقد جاء فيه ما يأتي: (... وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دايما إلى يوم الدين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)[12]

وقد تم الفراغ من نسخ هذا المخطوط كما جاء في آخره: يوم الأربعاء من شهر صفر عام 1146هـ على يد الشيخ الحسين بن أحمد بن محمد الداودي نسبا والبسناسي دارا ومنشأ، الأشعري اعتقادا.[13]

د- دراسة مضمون المخطوط:

وقبل أن نبدأ هذه الدراسة يجب أن ننوه ببعض الدراسات السابقة حول هذا المخطوط، فقد تناول أبو القاسم سعد الله الحديث عن هذا المخطوط عندما تحدث عن

المناقب الصوفية،[14] وقد كتب أحمد الحمدي مقالا حول هذا المخطوط أيضا تحت عنوان: بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار، مقاربة منهجية وتاريخية، حيث أن أهم فكرة يدور حولها هذا المقال هي الكرامة الصوفية،[15] ولهذا سوف نحاول في هذه الدراسة التاريخية التركيز على مختلف الجوانب التاريخية التي تناولها هذا المخطوط.

ألف الصباغ القلعي كتابه هذا في المناقب وهو يندرج ضمن التأليف لعالم التصوف والمتصوفة، فمادته سيرة الصالحين والزهاد وكل من يسلك طريق الفقراء، ويعتني هذا النوع من التأليف أساسا بتمجيد عالم الأولياء والتأريخ لكل ما يتعلق بظاهرة الولاية، فالمناقب مصادر ثرية تؤرخ للحياة الدينية، فهي تقوم بتقصي أخبار مجتمع رباني ارتبط أفراده وثيق الارتباط بالزهد والصلاح، كما أنها اهتمت بالتأريخ للذهنيات والمهمشين، باعتبار أن الفئات التي تؤرخ لها – وهم الأولياء- كانت قريبة من قاعدة الهرم أكثر من قمته، فهي تنبذ كل ما يتصل بالسلطة وغطرستها، وتمجد حياة البساطة وشظف العيش والزهد في ملذات الدنيا ونعيمها.

ولم يكن التأليف في المناقب وليد عصر الصباغ، وإنما ظهر قبل ذلك بكثير، وذلك عندما انتعشت حركة الزهد والتصوف بالمغرب الأوسط أكثر، وبدأت المؤلفات الصوفية تظهر للعيان فمن بين الذين ألفوا في هذا النوع:

- كتاب: "النور البدري في التعريف بالفقيه المقري" لمحمد بن مرزوق الخطيب التلمساني (ت781هـ).
- كتاب "المجموع" لمحمد بن مرزوق أيضا والذي طبع باسم "المناقب المرزوقية".
- وكتاب "أنس الفقير وعز الحقير" لابن قنفذ القسنطيني (ت810هـ) .
- و"مناقب الشيخ إبراهيم بن موسى الصنهاجي" لابن مرزوق الحفيد (ت842هـ).
- و"كتاب ديباجة الافتخار في مناقب أولياء الله الأخيار" لموسى المازوني (ت883هـ)، ومختصره الذي طبع في المغرب باسم "صلحاء وادي الشلف" لذات المؤلف.

– كتاب: "مناقب أبي عبد الله الشريف التلمساني وولديه عبد الله الغريق وأبي يحي عبد الرحمن التلمساني" لأحمد بن أبي يحي عبد الرحمن التلمساني حفيد الشريف التلمساني (ت 895هـ).

– و "المواهب القدسية في المناقب السنوسية" لمحمد بن إبراهيم الملالي (ت897هـ)

– و "روضة النسرين في مناقب الأربعة الصالحين" لمحمد بن صعد التلمساني (ت901هـ).

– و "بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار" للشيخ محمد الصباغ ألقلعي (ولد سنة 923هـ) وهو المخطوط الذي نحن بصدد التعرف على بعض المواضيع التي جاءت فيه.

1– أقسام المخطوط:

قسم الصباغ القلعي كتابه هذا إلى عشرة فصول متفاوتة الحجم وهي:

– الفصل الأول: خاص بثبوت ولاية الشيخ أحمد بن يوسف المليانى، والفصل الثاني: لم يضع له عنوان بل بدأه بعبارة: (اختلف في الولي هل يجوز أن يعلم أنه ولي أو لا)،[16] والفصل الثالث: وتناول فيه أقسام الكرامات، ويندرج فصل تحته خصه لآيات الرسل عليهم السلام، والفصل الرابع: وكان الحديث يدور فيه عن الذكر وفضائله، والفصل الخامس: في حقيقة الزهد، ومشيرا إلى بعض الفرق المبتدعة كالزنادقة والرافضة، والقدرية والحرورية والجهمية والمرجئة، والفصل السادس: حول إنكار أهل الظاهر لعلم الباطن، والفصل السابع: في المحبة، والفصل الثامن: في بعض كلام الشيخ أحمد بن يوسف المليانى، والفصل التاسع: حول الفتوة، وتعني الصفح عن عثرات الإخوان، والفصل العاشر: حول تلامذته الأخيار السادات الأبرار.

2– محتوى المقدمة:

بعد البسملة والحمد يشير المؤلف مباشرة إلى سبب وضع هذا التأليف؛ وهو تمسك أهل القلعة وسائر هوارة وبني راشد وغيرهم بالولي الصالح أحمد بن يوسف الراشدي، مشيرا إلى ما سوف يتناوله في هذا التأليف أي مناقب المليانى، ممزوجا بأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وحكايات الصوفية وما وقع من كرامات وخوارق له ولأولياء آخرين ذكرهم المؤلف من مشائخه وتلامذته الأخيار، لينتقل بعد ذلك إلى ذكر مكانته في سائر المغرب وأخلاقه وزهده وورعه وبعض مناقبه.

3- محتوى الفصول:

لقد سبق وأن أشرنا إلى فصول هذا المخطوط وأهم ما جاء فيها، حيث أنه يتناول الحديث أساسا حول أحد أقطاب التصوف في المغرب الأوسط وأحد أولياء إقليم بني راشد، وهو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن يوسف، وينتهي نسبه إلى إدريس الأصغر،[17] ويكنى الراشدي نسبة إلى قلعة بني راشد، والمليانى نسبة لإقامته بمدينة مليانة، في آخر أيام حياته ومدفنه بها.[18]

واختلفت الروايات حول سنة ولادته بين 836 هـ و 840 هـ، أما مكان الولادة فكان في أحد قصور توات يدعى دامود، ولهذا نجده يكنى في بعض الأحيان بالدامودي، لكن من المؤسف أننا نجهل أشياء كثيرة عن نشأته، فعلى الأرجح أنه انتقل إلى تلمسان وهو صغير، وأخذ العلم أولا في مساجد منطقة رأس الماء القريبة من وادي الشلف، وقد أخذ العلم أيضا عن علماء تلمسان ووهران ثم انتقل إلى بجاية، أين التقى بالشيخ أحمد زروق وتتلمذ على يديه، وأخذ عليه الطريقة الشاذلية.[19]

وقد استفاد الراشدي كثيرا من رحلاته العلمية إلى المشرق والمغرب، ليعود إلى بلاده وينشر العلم والطريقة معا، فأسس لذلك زاوية بمنطقة رأس الماء وانتصب للتدريس بها، فكان الطلبة يقصدونه من كل صوب حتى كثر مريدوه وأصبحت طريقته تعرف باليوسفية.

وكان أحمد بن يوسف الراشدي من أشد المعارضين للأمراء الزيانيين بسبب تحالفهم مع النصارى الأسبان، وهذا ما جعل السلطان عبد الله الثاني (923 – 924 هـ) يقرر قتله حرقا، لكنه تراجع عن قراره، وقد تم سجنه أيضا في عهد أبي حموا الثالث (923 - 924 هـ)، ليتحالف مع الأتراك فيما بعد، حتى أن بعض المصادر تذكر أنه التقى مع عروج واتفق معه على مقاومة الأسبان المتربصين بالسواحل المغرب أوسطية.[20]

وتوفي أحمد بن يوسف المليانى، في مدينة مليانة سنة 927 هـ، ودفن بها وله ضريح بنيت عليه قبة، وأصبح مزارا يقصده الناس للاستشفاء وطلب تفريج الكروب، كما يقول الصباغ القلعي.[21]

وقد خلف المليانى آثارا لا بأس بها أغلبها يتعلق بالتصوف، ونذكر منها: حكم في التصوف، وكتاب مختصر لكتاب في التصوف، ورسالة في حقيقة التقوى، وجواب لمن سأل عن ذات مولانا هل هي حسية أو معنوية،[22] ورسالة في أحكام الخرقة الشريفة، ورسالة في الرقص والتصفيق والذكر في الأسواق، وكتاب الرموز والإشارات، وكتاب المنهج الحنيف في معنى الاسم اللطيف.

بعض الجوانب التي تناولها المخطوط:

إن هذا المخطوط ليس مجرد خطاب منقبي موجه إلى مريدي الولي أحمد بن يوسف الراشدي وأتباعه، أو مجرد سرد للكرامات التي تخص هذا الولي مع صلحاء من المغرب الأوسط ومن خارجه، إنما يحمل في طياته نصوصا مهمة تساعدنا في التأريخ لجوانب مجهولة في تاريخ المغرب الأوسط.

فمن الناحية السياسية أشار المخطوط إلى العديد من الأحداث التي طبعت عصره، كسقوط قلعه هوارة بيد النصارى الأسبان سنة 924 هـ،[23] ثم تلتها مدن أخرى كوهران وتلمسان وبجاية، وكذا ذكره وصول عروج إلى تلمسان من الجزائر والتقائه بالشيخ أحمد بن يوسف المليانى وتحالفه معه.[24]

وتشير بعض نصوص المخطوط إلى ظلم قواد الوطن بتغريمهم الناس تعديا وظلما، وما دور الأولياء هنا إلا كف أيدي هؤلاء الظلمة عن الناس، فهم بذلك يمثلون دور المعارضة للسلطة وغطرستها، وكثيرا ما تتخذ ضدهم إجراءات تعسفية، فقد سجن أحمد بن يوسف الملياني من طرف الأمير أبي حموا، فشكك فيه واختبر ولايته،[25] وكانت بعض الزوايا تتعرض للنهب من طرف قواد الحملات، لكن سرعان ما يلقون العقاب بفضل دعاء الأولياء عليهم، فضلا عن النصح الذي يقدمونه لهم، فقد نصح الشيخ واضح الشلفي الأمير يغمراسن وحثه على الاهتمام بذوي الحاجات والضعفاء والمساكين الواقفين ببابه.

وبالرغم من الأوضاع السياسية المزرية التي كان يعيشها المغرب الأوسط آنذاك، إلا أن ثمة نصوص أوردها الصباغ القلعي تدل على وجود نشاطات اقتصادية كالزراعة والغراسة والرعي، وكذا الصناعة كصناعة السروج والصابون، وكذلك الحرف كالنجارة، بالإضافة إلى وجود نشاط تجاري بحري مع دول البحر الأبيض المتوسط، وبري بين مدن المغرب الأوسط، مع ذكره لبعض الأغذية المنتشرة آنذاك كالثريد المطبوخ بالسمن؛ وهو طعام الأولياء المفضل اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.[26]

ومن مزايا هذا المخطوط أنه يشير إلى العديد من الظواهر الاجتماعية المنتشرة بمملكة تلمسان وضواحيها خاصة والمغرب الأوسط عامة، فيبدوا أن ظاهرة الفقر كانت منتشرة هناك خصوصا في تلك الفترة الحرجة، لأن ما يؤكد ذلك كثرة التصدق والتكافل الاجتماعي الذي يقوم به الصلحاء والمتصوفة منهم أحمد بن يوسف الراشدي، فقد تصدق أحد الصلحاء بكل ماله المقدر ب 500 دينار، على امرأة شريفة شكت له حالها وحال بناتها فآثرها على نفسه، وكان قد ادخره لرحلة الحج ، حتى أنه رأى في المنام أن النبي ﷺ بشره بأن الله قد أنزل ملكا ليحج عنه، واستمر في ذلك كل عام جزاءً على ما فعله حيال تلك المرأة الشريفة.[27]

وقد أشار القلعي أيضا إلى أن بعض الفقراء في بوادي المغرب الأوسط يتناولون الطيور النافقة لشدة فقرهم،[28] ولعل من بين الظواهر التي تنجم عن هذا الفقر؛ ظاهرة التسول، فالنشاط المعتاد لهؤلاء المتسولة كان ينبني أساسا على سؤال قوتهم اليومي، فهم في ذلك يجوبون الأسواق والطرقات، ويتصدرون أبواب المساجد والقصور لعلهم يكسبون عطف السلطات فتنظر في أمرهم، لكنهم غالبا ما يفشلون في إيصال أصواتهم إليها، ويجدون الأبواب موصدة أمامهم، وخير دليل على ذلك ما ذكره القلعي رواية عن أبي عمران المازوني عن الشيخ واضح دفين وادي الشلف (من أهل ق 7هـ/13م) الذي امتنع عن مقابلة السلطان الزياني يغمراسن، قاصدا بذلك أن يعامله بمثل ما يعامل هذا السلطان الفقراء والمحتاجين الواقفين عند بابه؛ لعله يفطن من غفلته وينظر في شأن هؤلاء بدلا من الإعراض عنهم "فقال الشيخ واضح: يا اغمراسن أما تعلم وقوف الضعفاء والمساكين وذوي الحاجات ببابك، وما يجدونه في قلوبهم من الانكسار ومدافعة حراس الأبواب، بطول احتجابك عنهم، وإنما فعلت ذلك لك لتستيقظ من سنة غفلتك، وتذكر أحوال القاصدين إليك".[29]

ولم يكن الفقر الشيء الوحيد الذي يقلق مجتمع المغرب الأوسط، وإنما كثرة الأمراض والأوبئة أيضا، فقد جاءت نصوص كثيرة في هذا المخطوط، تشير إلى حدوث الأمراض، وخصوصا الجلدية منها والتي يكون سبب حدوثها في الغالب عوامل مختلفة؛ قد تكون مناخية، أو بسبب تلوث المياه، أو عدم توازن النمط الغذائي المتناول، ومن هذه الأمراض ما يكون مزمنا وفتاكا لا يبرأ إلا بمعجزة أو كرامة،[30] وكذا صداع الرأس المصاحب للحمى أحيانا، وأمراض الأسنان التي كانت منتشرة بكثرة أيضا،[31] وقد أشار المؤلف غير ما مرة إلى ما يسمى "بالداء العضال"؛ وهو كل مرض مزمن لا يبرأ منه صاحبه مدى الحياة إلا بمعجزة ربانية، فمن بين أعراضه؛ أن المريض به لا ينطق، ولا يبصر، ولا يستطيع الحراك، فهو شبه غائب عن الحياة.

أما الأمراض الخاصة بالنساء فلا ريب أنها كانت منتشرة أيضا داخل مجتمع المغرب الأوسط، لكن الإشارات حولها نادرة؛ فهي من الأمور المسكوت عنها في مصادرنا، فقد ذكر لنا القلعي أن إحدى النساء جاءت إلى لشيخ الولي أحمد بن يوسف الراشدي المليانى تشكوا له موت أولادها في بطنها، فدعا لها الشيخ وهي حبلى فولدت وعاش أبنائها بعد ذلك.[32]

كما أن إصابة الناس بالوباء في تلك الفترة يظهر لنا من خلال رواية أوردها القلعي مبينا أن ذهنيات أفراد مجتمع المغرب الأوسط كانوا مهيئين للاعتقاد بالسبب الروحاني لحدوث مختلف الأمراض والأوبئة، وأن سبب الأمراض العامة التي تصيب عدد أكبر من الناس إنما هو الجن؛ فقد دعى أبو ولجوط المعروف بأبي تابرنوست جماعة من الجن إلى شيخه أبي محمد عبد الخالق بن ياسين؛ وحملهم مسؤولية إصابة أهل بلده بأمراض كثيرة، وطلب منهم أن يظهروا له واحدا منهم فلما ظهر له قال له هذا الجن مبرئا لطائفته "ما أضررنا أحد وما مرضوا إلا من تغير هواء بلدهم".[33]

إن القلعي هنا لم يذكر لنا هذه الأمراض إلا لتمجيد الأولياء، فيطرح لنا البديل الفوري لحل أزمة المرض، من خلال إبراز دور الولي في علاج مختلف الأمراض بنمط مغاير عما ينتهجه الطبيب، فتحل الروح هنا محل المادة، أي بالأحرى بركة الولي وكرامته بدل الدواء المركب الذي يصفه الطبيب للمرضى في إطار عملية التطبيب.

إن نمط العلاج عند هؤلاء الأولياء يكون لا محالة ذو طابع ديني، لأن الشفاء هنا يكون بيد الله سبحانه وتعالى، وما الأولياء إلا سببا في ذلك بفضل تقواهم وورعهم، أما أساليب وأنماط العلاج عندهم فمتعددة، فمنها الرقية التي تندرج ضمنها مجموعة من الأساليب أيضا منها اللمس غير المصحوب بتفل، فقد أتى رجلا إلى الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي يشكوا معاناة زوجته من داء عظيم أصاب جسدها، فأصرّ الزوج أن يمس الشيخ على الداء بيده فلم يرد الشيخ ذلك، فحلّفه الزوج فقبل لأن المرأة أصبحت

في نظره مثل الجماد، فمسح بيده على الداء فعفيت، فلما انصرفت بقية رائحة هذا الداء في يد الشيخ أحمد بن يوسف مدة طويلة،[34] والذي يحتمل أن يكون هنا مرض الجذام، الذي تكون رائحته قوية.

ويعد الدعاء من أكثر الطقوس المرتبطة بظاهرة الولاية، فهو أيضا يعد من أبرز أساليب العلاج الروحاني الذي انتهجه أولياء المغرب الأوسط، على اعتبار أن دعوتهم مستجابة لتقواهم وورعهم، فقد دعا الشيخ أحمد بن يوسف الراشدي لامرأة مريضة بالداء العضال فشفيت بإذن الله، وعادت مع زوجها سالمة كأن لم يصيبها شيء، وقد دعى هذا الشيخ أيضا لامرأة كان لا يعيش لها أولادها فاستجاب الله له وشفيت المرأة من هذا المرض.[35]

وقد بلغ اعتقاد مجتمع المغرب الأوسط في الأولياء إلى حد التخيل بهم، فيتهيأ لهم أن الاستغاثة بهم عند المرض سيشفيهم منه، فقد ذكر القلعي عن علي بن زينب الدرجيني الذي حكى أن بعض أصحابه من الأعراب قد مرض مرضا شديدا أشرف منه على الهلاك، فألهمه الله أن يستغيث بالشيخ أحمد بن يوسف الراشدي ثلاثة مرات، فإذا به عند رأسه، ومسح بيده على جسد هذا المريض حتى شفي من مرضه، وقد يتسبب غضب الأولياء على بعض الناس في إصابتهم بالأمراض، وهي كرامة تحدث لهؤلاء وكثيرا ما تذكرها كتب المناقب، وكذلك القلعي، الذي غضب على رجل بسبب شكه في ولايته فمرض الرجل ولم يبرأ حتى كتب له الشيخ حجابا فتح أمام عينه.[36]

وذلك بين لنا لا محالة انتهاج أولياء المغرب الأوسط في تلك الفترة أسلوب العلاج بالعزائم والتمائم، ولم يكن عامة الناس يعتقدون بذلك فقط، وإنما خاصتهم أيضا،[37] فقد ذكر لنا القلعي رواية مفادها أن زوجة يغمراسن كانت قد أوصت ولدها وهو ذاهب لزيارة الشيخ واضح أن يحضر لها من عنده حجابا، وأعطته لذلك كاغدا، فكتب لها الشيخ الحجاب وأرسله لها مع ولدها.[38]

أما عن مداواة الأوبئة، فالرواية التي ذكرها القلعي حول استحضار الولي جماعة من الجن ليحملهم مسؤولية إصابة قومه بالوباء، تؤكد لنا لا محالة فشل الأولياء في علاج مختلف الأوبئة والطواعين، فلم يجد هذا الولي طريقة لمساعدة قومه سوى التحاور مع هؤلاء لعلهم يكفوا عن أذيتهم للناس.

ولعل من الظواهر المهمة التي تطرحها كتب المناقب بكثرة ومنها كتاب ابن الصباغ القلعي وهي اعتقاد مجتمع تلك الفترة بالأولياء بعد موتهم، حيث تصبح أضرحتهم وزواياهم مقدسات يلوذوا الناس بها للاستشفاء، فما دخل قبة ضريح الشيخ أحمد بن يوسف المتواجد بمليانه مريض إلا وبرئ من مرضه ببركة هذا جثمان الشيخ بحسب اعتقادهم.[39]

ومن الآفات الاجتماعية التي أشار إليها المخطوط ظاهرة اللصوصية التي كانت منتشرة في المغرب الأوسط على أوسع نطاق، سيما أوقات المجاعات وذلك ما يفسر انعدام الأمن آنذاك، فتبين لنا نصوص كثيرة من هذا المخطوط قدرة الولي على وضع حد لهذه الظاهرة بطرق شتى غالبا ما تؤدي إلى هلاك هؤلاء اللصوص أو توبتهم بفضل كرامة الولي.[40]

يمثل مخطوط ابن الصباغ القلعي نموذجا رائعا من كتب أدب المناقب، فهو ليس مجرد ذكر لسيرة الولي المليانى وتقصي أخباره، وإنما يحمل في طياته خطابا إصلاحيا إلى مجتمع كان يعيش ظروف سياسية واجتماعية صعبة أواخر الفترة الوسيطية، فقد ساعدتنا نصوصه على معرفة كل هذه الظروف، وكيفية تعامل شخص الولي معها فهي تحدد بدقة موقعه في هذا المجتمع وتفاعلاته مع مختلف أطيافه.

---

[1]- الصباغ القلعي. بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخيار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار، مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر رقم1707، ورقة 6أ، أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ط 1، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، 2/114- 115.

2

[3]- مؤلف مجهول. مناقب أحمد بن يوسف المليانى، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم 1457 د، ورقة 23، أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، 2/ 115.

[4]- الصباغ القلعي. بستان الأزهار، ورقة 5 ب.

[5]- مبارك الميلي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث، نشرة محمد الميلي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 488/2 – 489.

[6]- وتوجد نسختان منه في المكتبة الوطنية الجزائرية تحت رقمي: 1856، 1857.

[7]- ورقة 2 ب. وورد عنوانه في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم243. ك "بستان العارفين الأزهار في مناقب رمز الأخيار ومعدن الأنوار"

[8]- ورقة 2 ب.

[9]- ورقة 23.

[10]- رفيق خليفي، المخطوطات الجزائرية في المكتبات الأجنبية، بحث مرقون غير منشور، ص 271

[11]- ورقة 2ب.

[12]- ورقة 114 أ.

[13]- ورقة 114 أ.

[14]- تاريخ الجزائر الثقافي، 113/2- 118.

[15]- نشر في مجلة المخطوطات العربية، لسنة 2009.

[16]- الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 21ب.

[17]- مؤلف مجهول: مناقب المليانى، ورقة: 141.

[18]- الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 32أ، الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، ط2، تونس- بيروت، المكتبة العتيقة-مؤسسة الرسالة، 1985، 103/2-106

[19]- المصدر نفسه، ورقة: 11أ، مؤلف مجهول : مناقب أحمد بن يوسف المليانى، ورقة 76، 145، 146.

[20]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ص 503- 504.

[21]- بستان الأزهار، ورقة 32 ب. وتأكيدا لذلك ألف علي بن أحمد بن موسى الجزائري (ت 1330هـ) كتابه المسمى "ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلق بأحكام الزيارة على ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف المليانى" مخطوط المكتبة الوطنية بالجزائر، رقم 928.

[22]- رفيق خليفي:المخطوطات الجزائرية في المكتبات الأجنبية، ص 268-269

[23]- ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة: 6أ. 11أ. 113أ

[24]- المصدر نفسه، ورقة: 10ب، 113أ.

[25]- ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة: 4ب، 26ب، 29ب، 4ب. 21 أ.

[26]- المصدر نفسه، ورقة: 113أ، 4ب، 51ب، 106أ، 103ب.

[27]- المصدر نفسه، ورقة 26 أ - 26 ب.

[28]- المصدر نفسه، ورقة 26 ب.

[29]- المصدر نفسه، ورقة 45 أ.

[30]- ابن الصباغ القلعي: أزهار البستان، ورقة 33 أ.

[31]- المصدر نفسه، ورقة 41 أ. 19ب، 32ب. 20 ب .

[32]- المصدر نفسه، ورقة 20 ب .

[33]- بستان الأزهار: ورقة 89 أ.

[34]- المصدر نفسه، ورقة 89 أ.

[35]- ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 20 ب.

[36]- المصدر نفسه، ورقة 19ب – 20 أ.

[37]- المصدر نفسه، ، ورقة 20 أ. ورقة 45 ب.

[38] - المصدر نفسه، ورقة 45 ب.

[39]- ابن الصباغ القلعي: بستان الأزهار، ورقة 32 ب.

[40] - المصدر نفسه، ورقة: 3أ، 11أ، 26ب، 32ب.